

مسافر إلى الله

الرؤية والأداة

د. حسين علي محمد

الشاعر أحمد فضل شبلول (١٩٥٣-...) أحد الأصوات الفتية في الشعر المصري المعاصر، وهو من الجيل الذي يطلق عليه «جيل السبعينات» في مصر، ومن شعرائه: محمد سعد بيومي، وصابر عبد الدايم، وجميل محمود عبد الرحمن، وعبد الله السيد شرف، وفوزي خضر، وأحمد محمود مبارك، وعبد الستار سليم، وعزت الطيري، وعبد الجواد طایل... وغيرهم

وقد نشر أحمد فضل شبلول قصائده في عدد من الدوريات المصرية والعربية، مثل: الكاتب، والموقف العربي، والشعر، والجدید في مصر. والبيان، والعامل، وصوت الكويت في الكويت ثم رأى أن يجمعها في هذا الديوان الصغير الحجم الذي يحمل عنوان «مسافر إلى الله» (١).

ولأن معظم شعر التفعيلة الآن ينزع إلى الغموض. ولا نكاد نفهم ما نقرؤه، أو على الأقل نشعر بصداه داخل نفوسنا، فإننا نقول: «إن هذا الديوان حبيب إلى القلب لأنه يقول شيئاً ذا بال في ألفاظ يسيرة، منتقاة، تصل إلى القلب. ويزداد الحب لهذه المجموعة عندما ننتهي من قراءته؛ لأنه ترنيمة عذبة في حب الله. وأغرودة نقية في تأمل الكون» (٢).

وقبل أن يقدم لنا أحمد فضل شبلول شعره، نراه يصدر ديوانه بالآيات القرآنية الكريمة (٢٢٤-٢٢٧ من سورة الشعراء) التي تحدد موقف الإسلام من الشعر والشعراء.

﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا

الصلوات. وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

ثم يثني بالإهداء الذي طال قليلاً، فصار -عند القارئ- المنهاج الذي يحدد المسيرة ويوضح الأهداف:

«لا خلاص لإنسان هذا العصر

إلا بالرجوع إلى الله،

والعودة إلى الدين.

فإلى من ينكر وجود الله

وإلى من يشعر بوجود الله

وإلى من يؤمن بوجود الله

أهدي

«مسافر إلى الله» (٣)

وبعد الآيات القرآنية الكريمة

والإهداء يرينا الشاعر أنه يسير على هدى

من الله، فهو يرى أن للكلمة رسالة؛ فهي

تفتح دروب الأمل وتقضي على كل منازع

اليأس والإحباط. فيقول في قصيدة تحمل

عنوان «ديباجة»:

علمنا الله

أسماء الأشياء

كي لا نصمت لحظة صدق أو لحظة حب

ورأينا - نحن الشعراء

أن الماء كلام

الشمس كلام

الكون كلام

ولذا...

غنيًا للكلمة حين تكون نقيّة

للكلمة حين تكون رصاصة صدق

في صدر الوسواس الخناس

الكلمة حين تمدّ غطاءً فوق قلوب الناس

غنيًا للكلمة

وسجدنا لله (٤).

وباستثناء لفظة «ولذا» التي تبعد عن

الشاعرية بقدر ما تقترب من النثر، فإن

هذه الديباجة الشعرية تبين مرجعية

الكلمة (الاسم، التعليم، الفقه، الموقف)

إلى الله حين «علم آدم الأسماء كلها» (٥)

ولهذه المرجعية كان الكلام، وكان الشعر.

والشاعر يبين وظيفة الشعر، وهي

النطق والإبانة في لحظات الصدق،

الممزوج بالحب؛ كي تكشف عن مخزون

القلب (مشاعره) وتصدق بالحقيقة،

الصادقة (الرؤية). وهل كان الشعر -على

امتداد تاريخه الوجداني- إلا شعوراً ورؤية

كاشفة تستل لحظات الصدق من القلب،

وتضيء

لحظات الحب

حتى لا يحيط الزيف

والكذب بأرجاء الأرض؟

ومن هذه الديباجة نعرف أن الشاعر
ينطلق من رؤية إسلامية، نستطيع أن نتبين
من محاورها:

● أن الله في منظور الشاعر المسلم،
هو المرجعية الأولى. فهو الذي علمنا
الأسماء والمدلولات. والشاعر يحاول أن
يفتح عينيه وقلبه على الكلمات في بكايرتها
وتدققها الأول، وهو يرى في كل مفردة من
مفردات الطبيعة ذاتاً قادرة على النطق
والإبانة:

الماء كلام

الشمس كلام

الكون كلام. (٦)

هذا الديوان كلمة حب منسجمة مع

الكون متأمل في مخلوقات الله

لا عجب إذن أن يكون
الشاعر كلمة حب منسجمة مع
هذا الكون، متأمل في مخلوقات الله،
متناغمة مع الكون المتعبد لله، المتناسق مع
منظومة الخلق.

يقول في قصيدة «إضاءة الحب»:

ماذا لو أدركت

أن الحب بقلبي

شمسٌ وصلاة

أنَّ الليل بدر بي

إشراقاتٌ

ودعاءٌ للفقراء

أنَّ القمر الساري

شمسٌ

في عُرْفِ الشعراء..؟

ماذا لو أدركت

أنَّ الشعر ضياء

ينبعُّ من أضواء الروح...

وأضواء الكلمات

أنَّ الفجر دروبٌ..

من همسات العينين

ومن دفء الأصوات (٧)

● يتأسس على هذا الفهم لمرجعية
الكلمة إلى الله، وهذا الفهم لبكارة الكلمة
وإزالة ما علق بها من تراكم تعليمي،
ومصطلحي؛ أن تنكشف العبارات عن
فيوضات الروح. وتستطيع أن ترى خلف
الجوامد والعوائق الطريق الصحيح.

الصراع، فإنها تستطيع أن تختزل تجربة
الإنسان المتراكمة. وصراعه الخالد مع
الشر، وتوقه إلى الخير، ومعرسته مع الجبارين
المتطرفين من قساة القلوب. وغلاظ
الأكباد، وفراغته كل عصر... تستطيع أن
تختزل ذلك في ومضة شاهدة على إشراقات
الروح، التي تحررت من أغلال الجسد:
وما أكثر الومضات في هذا الديوان.

فهو يقول في قصيدة «من الروح إلى
الجسد» إنه استطاع أن يلم بتاريخ الإنسان
مع الله والكون والحياة من تأمله:

«إني قرأت في الحجر

أقصصة الذين في قلوبهم مرض

شاهدت في السحر

حدائق الذين في صدورهم نهر

إني رأيت في البحر

موسى ومن معه» (٩)

فهو يرى أن هؤلاء القساة
الذين في قلوبهم مرض مائلون
أمامه، يقرأ صورتهم في الحجر
الأصم حينما يراه، ولعله كان يتمثل صورة
اليهود في القرآن الكريم. حينما قال الله
عنهم: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك
فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ (١٠).
ولعل هذه الصورة وتداعياتها هي التي
جعلته يستدعي موسى:

إني رأيت في البحر

موسى...

والنجاة تكون لمن اتصل بالله - فهو
صاحب المرجعية الأعظم ﴿إن إلى ربك
الرجعى﴾ (١١) - يتصف بذلك النبي
والرسول. كما يتصف به من ابتعه:

يقول مصوراً موقفه الشعري من
الصراع الأزلي بين إشراقات الروح وقيود
الجسد، في قصيدته «من الروح إلى الجسد»:

بيني وبينك الحياة

بيني وبينك الساء

بيني وبينك الصلاة والنجاة

فلا سقر

إلا إلى الإله

ولا قدر

إلا مع الذين يسجدون...

ولا أمل...

إلا مع الرجوع للدموع (٨)

إذا اجتازت الروح الشاعرة هذا

مسافر إلى الله: الرؤية والأداة

دراسة تطبيقية

عيننا

الآن، وعدم

تمكنا - أو عدم

قدرتنا - على تبين ملاحمه، ورغم عنف
الواقع وعبثه بهذا المستقبل الرضيع
فيجعله بين الموج مرة، وفوقه مرة... رغم
كل هذا، فإن المستقبل سيجيء في موعده،
لا يخطئه، محفوفاً بعناية الله وتوفيقه.

كلمات أحمد فضل شبلول في
هذا الديوان بسيطة صادقة - بغير
تسطيح - ولم يلجأ إلى (البهلوانيات
الأسلوية) التي أدمنها الشبان في
السنوات الأخيرة فصارت قصائدهم
نوعاً من الأحاجي (١٣).

يقول أحمد فضل شبلول في
«صوفية الاسكندرية»:

هذا بحركٍ يفتح لي قلبه

هذا موجك مدّ الزبد الدافئ سترأ فوقي

هذا رملك تبرّأتوسد أفقه

هذا فجرٌ يوقظني قبل صباح الديكة
تتوالد حركة..

في جنباتك يعزف «خط الرمل»

وتبدأ في الرقص المركبة الزرقاء

ويُدأّر المدياع أمام المقهى النائم في أحضان الشاطئ

يأتيني صوت «الشيخ محمد رفعت»...

الخ (١٤).

هذا شعر نقي صاف، استطاع أن
يصنع من الكلمات المعتادة شعراً أخاذاً،
فيه حياته الخاصة، وفيه حركة نلمحها في
دقة اختياره الكلمات الدالة على ميلاد
صباح جديد: فجرٌ، يوقظني، صباح
الديكة، تتوالد، النائم. وتلمحها في الفعل

وتنشط الأرض اثنين

ويسافر في قطرات الماء الصاعد نحو الشمس

حيث يصير رصاصة إيمان

تفجّر عند بلوغ القرن الحادي والعشرين (١٢)

وتنبئ القراءة الأولى لهذه القصيدة

عن تمثّل واع لقصة موسى عليه السلام

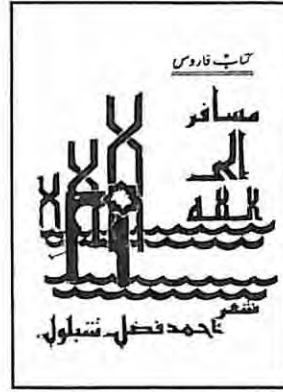
من مولده، إلى خروجه من مصر ونجاته

بقومه من بطش فرعون ومكره. ومن خلال

تمثله لهذه القصة من قصص القرآن - نراه



أحمد فضل شبلول



مسافر إلى الله

يؤمن بالمستقبل إيماناً لا شك فيه، ونفهم
هذا الإيمان - الذي لا يعتريه شك - من
خلال تناوله المستقبل تناولاً فنياً، إختار
فيه نبي الله موسى عليه السلام - رمزاً
للمستقبل. وسيجيء مستقبل المسلمين
ناصباً لأغبار عليه، تحيا فيه أمة الإسلام
حياتها التي قدرها الله لها، بعد أن تزول
عنها الأخطار كما زالت عن موسى حينما
أيده الله بنصره فانقلق البحرُ نصفين وعبر
موسى ومن معه الأخطار.

والمستقبل يراه شاعرنا رضيعاً، غضاً
لم تشكل ملاحمه بعد، وكأنه موسى الطفل
في تابوته في البحر (المستقبل في إطار الزمن
المطلق) ورغم تأرجح صورة المستقبل في

موسى ومن معه.

● وهذا الديوان الذي يتخذ عنوان
«مسافر...» ليضعه على غلاف المجموعة،
يعني استمرار السفر، واختياره لصيغة
اسم الفاعل صيغة ملائمة تمنح التجدد،
والقدرة على السفر. ومن ثم فإن الشاعر
مسافر في التاريخ، مسافر في الحاضر يفتح
عينيه ليرى الواقع من منظوره الإيماني،
مسافر إلى المستقبل، يتفحص ما فيه على
ضوء ماضيه وحاضره.

والشاعر لم يرحل إلى المستقبل
اعتباطاً، بل لأنه يعرف دور الشاعر
المسلم، فهو حالم أبداً بمستقبل
أخضر. ففي قصيدة «قراءة في كتاب
المستقبل» نرى الزمن الآتي الجميل
ينتصر رغم متطلبات الواقع
ومجهضاته التي تحاصر المسلم أنى
توجّه، فكأن كلمات هذه القصيدة
تكشف عن دور الشاعر المسلم،
وقدره الذي يجعله صاحب رسالة.
ورسالته هذه تتمثل في كلماته التي ينبغي
أن تكون.

رصاصة صدق في قلب الوسواس الخناس
كما قال في ديباجته!

تقول كلمات القصيدة:

حين انزلق التابوت إلى أحضان البحر
كان هناك رضيع يتأرجح بين ظلال الموج
كان هناك رضيع يتأرجح فوق ظلال الموج
ويحتضن الزبد النابض في الأعماق
- لكن عن مجيء الكفر
يصفع وجه الماء..
فينفلق البحرُ اثنين

شعر صاف استطاع أن يضع

الكلمات المعتادة تصائد أخادة

وأدري

أقول أنا الآن أخفقه بيدي

(التورباد، المجلد الأول، العدد الرابع، شوال

١٤٠٨ هـ - يونيو ١٩٨٨، ص ١٤٧) وانظر قصيدة «ذاكرة

لأسئلة التوراس» لعبدالله الخشرمي، التي يقول فيها:

أني فجر تلكاً في معصبي

وانتحي موسياً ليس ميعاده

أي فجر ترميل فيه اللدي

كحي يرى الليل أطفالاً

أني فجر فحطت بالحصن والزغبات

وها قد ضى الوقت في غيّه

نتمم الحال ...

وهذا فم البحر

يرخي سنايكه للوصايا

(ديوان ذاكرة لأسئلة التوراس «نادي جدة الأدبي، د،

ص ٥٢).

ويقول محمد الفيسي في قصيدة «زواج»:

إذ تشابك صعداً صعداً حتى أعلى التل. هنالك

أمرارك ومعاليك. هناك امرأتي نابت. ووجدت يدي مقيدتين

بلا فتاح.

درت الغابة خفوقاً. حلوا من مشمشها في هذا العيد

... فقطعنا موسيقى النعناع على مرأى النمل.

(مجلة «كلمات» البحرينية، العدد ١٧، عام ١٩٩٢،

ص ١١١).

وقد اخترت هذه النماذج الأتلى غموضاً، وهي لن

تنصح لقارئها - كما يبدو - بسهولة ويسر. وعليه أن يضرب

أخماساً في أسداس، قبل أن يتخيل ما تريده القصيدة، التي قد

لا تريد شيئاً!

(١٤) أحمد فضل شبلول، مسافر إلى الله، ص ١١.

(١٥) المصدر السابق، ص ٢٩.

المحدثين - الذين لم ينفصلوا عن هوية
الأمة ونبضها الحي - قادر على الإضافة،
ويمتلك الطموح لتقديم الأرفع والأرفع.

الهوامش

(١) أحمد فضل شبلول: رسالة إلى الله - كتاب فاروس - ٤٨

صفحة من القطع الصغير، الإسكندرية ١٩٨٠.

(٢) في مناقشة هذه الفكرة انظر مثلاً في مجلة «الأدب»

الليبية، عدد فبراير ١٩٨٣، ص ٥٦.

(٣) الديوان، ص ٤٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٧.

(٥) سورة البقرة: بعض الآية ٣١.

(٦) الديوان، ص ٧.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٦، ٣٧.

(٨) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٩) المصدر السابق، ص ٤٠، ٤١.

(١٠) سورة البقرة: بعض الآية ٧٤.

(١١) سورة العلق: الآية ٨.

(١٢) الديوان، ص ٨. وقد نشرت في مجلة «الكاتب» المصرية،

عدد يوليو ١٩٧٦.

(١٣) انظر على سبيل المثال قصيدة محمد عبد الإله العصار

«شاهد القاتل» حيث يقول فيها:

قلت منذ الصباح

بأن الصباح جميل يمر

ولا أحد أرده بتلك التحية

إلاي

ولا أحد يفتح نقياً إلى نفسه

المضارع الذي يمنحها الحياة باستمرارته:

أتوسد، يوقظني، تتوالد، تعزف،

تبدأ، يدار، تأتيني.

إنك لن تجد في هذه الأبيات فعلاً
ماضياً سوى «مد»، وكأنه يعني أقول
الماضي، قبل أن يدخل في زخم القصيدة.

وصياغة القصيدة عند أحمد فضل
شبلول تبهرك. فللغته مذاق خاص،
يجعلك تعيد النظر فيما قرأت وآمنت به من
حقائق نقدية. فقد تسمع من نقادنا من
يعيب اللغة التقريرية، ويصفنها بالجفاف
والبعد عن الشاعرية. ولكنك تقرأ شعر
أحمد فضل شبلول فيروك رغم ما فيه من
تقريرية كثيرة. وأرى أنها محببة عنده لأنك
لا تحس فيها الافتعال، وهو آفة كل فن.

اقرأ معي - إن شئت - قوله في

«إضاءة الماء» التي صدرها بقوله تعالى:

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

الماء خليلي ... منذ اليوم الأول من أيام الخلق
والموج رفيقي .. منذ دوائر تكوينات الأرض
والرمل صديقي .. منذ بداية ترينيات الضوء
والشمس طريقي

نحو الحب

ونحو الدفء

ونحو الشوق (١٥).

إن هذا الديوان الصغير مشحون
بالإضاءات والرموز الإسلامية. ويكشف
عن قدره إبداعية للشعر الإسلامي
المعاصر - يستطيع من خلالها أن يسع الكون
والحياة. وهو في الوقت نفسه شهادة
إبداعية يقدمها شاعر شاب على نفقته،
يثبت بها أن الجيل الجديد من شعرائنا